وقبل أن استطرد يحضر في ذهني خاطرة قرأتها منذ زمن تصف مشهد ثلجي. سرب من الغربان يحل على فروع شجرة عارية تتوسط حقلا مغطى بطبقة بيضاء ثلجية. فتنظر اليه إمرأة عجوز من النافذة قائلة: يا لهذا المنظر برد وريح وغربان لا تأتي إلا بخراب البيت، بينما حفيدتها الصبية تلقي نظرة من نفس النافذة وعلى نفس المنظر فتعلق قائلة: يا لهذا الجمال إنها أشبه ببياض العين التي تتوسطها القزحية السوداء، والغربان تتقارب وتتهامس كما الاطفال الابرياء.

إنه نفس المنظر، العجوز تشاءمت منه والصبية تفاءلت فيه، ونحن حينما نرى مصاعبنا وعيوبنا لا يتعين أن نراها بعين العجوز المتشائمة التي فقدت الطموح والحلم وبالتالي الإرادة على قهر المصاعب، بل على العكس علينا إستخلاص العبر وتجميع الخبر ومواصلة الطريق. وكما يقول المثل البريطاني القديم: "الضربة التي لا تقتلك تقويك". فعلى هذا النحو يتصرف الصلاب والاصلاء من الثوريين، أما النمط المدلل السطحي وهذا الطراز موجود بيننا ونصادفه يوميا، فيهزم أمام أية مشكلة، ومثلا لقد تحللت معظم منظمات الحزب البلشفي بين ١٩١٤ – ١٩١٦ أي حينما نشبت الحرب الكونية الاولى وكان قرار الحزب مناهضتها، أي مناهضة تاريخ تلكم اللحظة، أي التجديف ضد التيار العالمي، وهذا كان حال الحزب بل أسوأ من ذلك بعد هزيمة ثورة ١٩٠٥، غير ان الخلص واصلوا ونجحوا لاحقا في الإسهام بدور رئيسي في إسقاط القيصرية وبعدئذ الحكومة البرجوازية المؤقتة عام ١٩١٧.

ولو لم يكن برنامج الحزب البلشفي يعبر عن حاجات أساسية أصيلة للشعب الروسي لما إلتحقت به جموع الكادحين. أي أن المسألة موضوعية، اي حقيقة برنامجك في ميزان التاريخ، ويأتي بعد البرنامج القدرة على تأليف أداة ثورية وآليات قادرة على قيادة الجماهير نحو أهدافها.
والتاريخ أحيانا يخطيء، فصعود النازية والفاشية خطأ، غير أنه قادر على تصحيح أخطائه كما قال غرامشي ذات مرة، ولهذا سحق التاريخ النازية والفاشية ووضعهما في زاوية مظلمة.

واليسار الفلسطيني قد يمر بحالة إنحسار، وهذا حال اليسار العالمي رغم النجاحات الحقيقية في الصين، والنجاحات الجزئية في بولندا وأيطاليا وجنوب أفريقيا، ولكن لطالما أن البرنامج اليساري متطور وصائب فلا محالة